المكتبة الأكاديمية
الحاصلة على شهادة الجودة
ISO 9002
Certificate No.: 82210
03/05/2001

قضايا معاصرة
في ميزان الإسلام

قضايا معاصرة
في ميزان الإسلام

فضيلة الشيخ
محمد الراوي

الناشر
المكتبة الاكاديمية
شركة مساهمة مصرية

2008

حقوق النشر

الطبعة الأولى ٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ

حقوق الطبع والنشر © جميع الحقوق محفوظة للناشر :

المكتبة الاكاديمية

شركة مساهمة مصرية

رأس المال المصدر والمدفوع ١٨,٢٨٥,٠٠٠ جنيه مصري

١٢١ شارع التحرير - الدقي - الجيزة

القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون: ٣٣٣٦٨٢٨٨-٣٧٤٨٥٢٨٢(٢٠٢)

فاكس: ٣٧٤٩١٨٩٠ (٢٠٢)

لا يجوز استنساخ أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابي من الناشر .

الإسلام

والمتغيرات العالمية المعاصرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على المبعوثِ رحمةً للعالمينَ، سيدِنا ومولانَا محمدٍ. صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين.

وبعـــد..

فلقد وقعت وقائعُ ذاتُ شأنٍ في عالمنا المعاصر، دَعَت إلى تساؤلِ الناس - في أكثرَ من مكانٍ - عن الإسلام:

ما حقيقته ؟

وما صحةُ ما يُنسَبُ إليه، أو يُقالُ عنه ؟

وحثَّهم على ذلك تتابعُ الأحداثِ، وسرعةُ المتغيِّرات.

والإسلامُ مذكورٌ في كُلِّ ذلك، سواء بالإنصاف والتأييد، أو الإساءة والتعريض.

وقد شَغَلَ الناسَ جميعاً. مَن آمَنَ به، ومَن أعرضَ عنه.

ومِن حَقِّ الناس أن يعرفوا حقيقةَ ما هو واقعٌ في يُسْرٍ، وأن

يأتوا ما يُنادَى إليه في إنصافٍ وعدلٍ.

والتفت الناسُ – من جهاتٍ شتّى – يطلبون أن يسمعوا من الأزهر الشريف – ذي المكانة والتاريخ – كلمةَ الفصل، كما جاءت من عند الله في كُتبه المنـــزّلة؛ حتى تُوضَعَ الأحداثُ المتغيِّرةُ في موضعِها الصحيح، دونَ تَقوُّلٍ أو ادِّعاءٍ، وأن يُحكَمَ عليها – بما تُوحي به كلماتُ الله – في عدلٍ وحكمةٍ وإنصافٍ؛ حتى لا تُنتَسب الأمورُ إلى غير أصلها، أو يُضاف إليها ما ليسَ منها.

﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ﴾ [(١)]

فكان هذا المؤتمر بهذا العنوان "**هذا هو الإسلام**" [(٢)] تلبيةً لتساؤلاتٍ متعددة، وإجابةً لوقائعَ عامةٍ متنوعة.

لتكون بُحوثُه المختصرة، وكلماتُه الموجزَة في موضوعاتٍ تتصل كُلُّها بهدايةِ القرآن الكريم ومقاصده؛ ولتكون – لكُلِّ راغبٍ في اتِّباع الحق – بياناً وتبصرةً.

---

(١) الأحزاب: من الآية ٤.

(٢) هو المؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية، المنعقد في الفترة من: ٣ من صفر ١٤٢٣هـ، الموافق ١٦ من أبريل ٢٠٠٢م.

وللإسلام في كُلِّ شأنٍ كلمةٌ، وله في كُلِّ أمرٍ موعظةٌ وتذكرة.

والحمد لله أن الإسلامَ - وقد حُفِظَ كتابُه - ليس مجهولاً لأحدٍ، في ماضٍ أو حاضرٍ، ولن يكون مجهولاً - أبداً - في مستقبلِ الإنسانية كُلِّها.

وقد حَفِظَ اللهُ الذِّكْرَ، كما حَفِظَ بيانَه بعملِ الرسول ﷺ وقولِه وإقرارِه.

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١)، ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (٢)

فما يكتبه العلماءُ ليس دفاعاً عن الإسلام، أو بياناً لحقيقته؛ فإنَّ حقيقةَ الإسلام محفوظةٌ في قرآنٍ كريمٍ يُتْلَى على الناس جميعاً بلا توقُّف، وفي سُنَّةٍ مطهرةٍ مُبَيِّنَةٍ يُرى فيها الرسولُ ﷺ أُسوةً حسنةً لكلِّ مَن كان يرجو اللهَ واليوم الآخر.

---

(١) النحل: من الآية ٤٤.

(٢) الأنعام: ١٥٥.

والعلماء عندما يكتبون إنما يكتبون عن وقائعَ وأحداثٍ تجمعُ بين المسلمين وغير المسلمين؛ رجاء أن يستجيبوا - جميعاً - لنداء الله ربِّ العالمين، متعارفين غير متناكرين.

والله سائلهم عن موقفهم من رسالة الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وسائل الرسلَ عمَّا أُجيبوا به، بعد بلاغٍ وإعذارٍ وإنذار.

﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (١)

فالإسلامُ - الذي أرسل الله الرسلَ جميعاً به - ليس مُتَّهَماً؛ حتى يُدافِعَ عنه أحدٌ. وكُلُّ شيءٍ في الكون شاهدٌ بفطرته، داعٍ إلى العمل بشِرْعَته.

وإنما التهمةُ في جفاءِ الناس، أو إعراضهم ومخالفتهم، وعدم استجابتهم لما جاء به المرسلون. والعلماء عندما يدعون إلى اتِّباع المرسلين، إنما يدعون لِتَوَقِّي فتن - في حياة الناس - مَوْجُها كالجبال.

ولا يمكن توقِّيها إلاَّ بحُسْنِ الاستجابة لما جاء به المرسلون، في

(١) المائدة: ١٠٩.

رُشْدٍ، واتباعِ حق، وإقامةِ عدلٍ، وتعاونٍ على تقوى وبرٍّ، لا على إثمٍ وعدوان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾[1]

وأمَا وقد كان من نصيبي الحديث عن هذا الموضوع - من الموضوعات التي أقرَّها مجمع البحوث الإسلامية -: **الإسلام والمتغيرات العالمية المعاصرة** - أن أُوفَّقَ في إيجاز هذا الموضوع وما يشتملُ عليه في أمرين اثنين:

* حقيقة الإسلام وغايته.

* المتغيرات العالمية المعاصرة وما يترتَّبُ عليها.

(١) الأنفال: ٢٤، ٢٥.

أولاً: حقيقة الإسلام وغايته

الإسلامُ هو الفطرةُ التي فطر اللهُ الناسَ عليها.

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

ومعنى فطر الناس على الدين الحنيف: أنَّ اللهَ خَلَقَ الناسَ قابلين لأحكام هذا الدين.

وكَوْن الإسلام هو الفطرة، وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة، صفةٌ اختُصَّ بها الإسلامُ في جميع تفاريعه، أمَّا أصوله فاشتركت فيها الرسالاتُ الإلهية.

وهذا ما أفاده قولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾

فالإسلامُ عامٌ، خالدٌ، مناسبٌ لجميع العصور، صالحٌ لجميع الأُمم.

---

(١) الروم: ٣٠.

ذلك لأنَّ أحكامَه قد بُنِيَت على أصولِ الفطرة الإنسانية.

وقد اقتضى وصْفُ الفطرة أن يكونَ الإسلامُ: سَمْحَاً يُسْراً، لا حرجَ فيه ولا تكلُّف.

وتلك إرادةُ الله، وهذه نعمتُه.

﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (١)

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (٢)

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ وإقامةُ الوجه: تقويمه وتعديله، باتجاهه قبالة نظره، غير ملتفتٍ يميناً ولا شمالاً. والأمرُ في قوله: ﴿ فَأَقِمْ ﴾ مستعملٌ في طلب الدَّوام، والمعنى: أقم وجهَك للدين والمؤمنون معك، و﴿ لِلدِّينِ ﴾ أي: لدينِ الإسلام، و﴿ حَنِيفًا ﴾ صيغةُ مبالَغة في الاتصاف بالحَنَف، وهو الميل. وغلب استعمال هذا

(١) المائدة: من الآية ٦ .
(٢) البقرة: من الآية ١٨٥.

الوصف في الميلِ عن الباطل، أي: العدول عنه بالتوجه إلى الحق. أي: عادلاً ومنقطعاً عن الشرك، كقوله تعالى في حقِّ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١)

فهذا الدينُ مُخْتَصٌّ بوصفين، هما: التبرؤ من الشرك، وموافقة الفطرة. فالدين الحنيف - وهو الإسلام - فطرةُ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها، وخلقهم على استعداد فطريٍّ لقبول هذا الدين. كما قال الرسول ﷺ: « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ... » (٢)

وقوله تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ هو خَبَرٌ مرادٌ به الأمر. والتقدير: لا تُبدِّلوا خَلْقَ الله - وهو الفطرة - ولا تُفسدوا هذا الخَلْقَ السَّوِيَّ بما تُدخلون عليه من أهواء.

بل عليكم بحراسةِ هذه النعمة، وعَرْضِها على هدي الله إذا طاف بها طائفٌ من الضلال.

---

(١) النحل: ١٢٠.

(٢) البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يُصلَّى عليه ؟ رقم ١٢٧٠.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أي: الدين المستقيم على فطرة الله التي فطر الناسَ عليها.

كما قال الله ﷻ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ (١)

إن الله تعالى قد جعل الناسَ قابلينَ لأحكام هذا الدِّين، وجعل تعاليمه مناسبة لفطرتهم، غير مجافية لها، والعدوُّ والصديقُ، والقريبُ والبعيدُ أمام عَدْله سواء.

وذلك مقتضى الإيمان به، والوفاء له ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الكهف: ١.

(٢) النساء: ١٣٥.

فليس لهوى النفسِ موضعٌ في القيام بالقسط وإقامة العدل. بل خضوعٌ لمنطق الحق، وإنصافٌ وعدل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (١)

ومن يتدبَّرَ آياتِ الله وهي تنـــزل على رسول الله ﷺ عَرَفَ كيف يكونُ الإنصافُ، والدفاع عن بريءٍ مهما كانت عداوته وشنآنُه، وكيف تنـــزل آياتٌ من القرآن الكريم؛ لتبرئة يهوديٍّ تكاد الأدلةُ - أدلة الإثبات - تُثبت إدانَتَه؛ لوجود ما سُرِقَ في بيته.

وليس من شأن أحدٍ أن يدفَعَ عنه.

ولكن الله ﷻ يُنـــزِلُ آياتٍ في سورة (النساء)؛ ليعلم الخَلْقُ جميعاً أن الله ﷻ لا يقبلُ - أبداً - أن يُتَّهمَ بريءٌ بغيرِ ذنب.

مع أن المتهم - آنذاك - عدوٌّ تُعرَفُ عداوتُه.

---

(١) المائدة: ٨.

ولكن مهما بلغت العداوةُ أو الإساءةُ، فإن الإسلامَ لا يقبلُ في حُكمه إلاَّ الإنصافَ والعدل.

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝ ﴾ (١)

هكذا يُتْلَى القرآنُ؛ لِيُنْصَفَ بريءٌ كادَ أن يُتَّهَم، ويقف في جانب يهودي أوشَكَ أن يُدانَ. وتلك فطرةُ الإسلام، وهذا شرعه في جميع الأحوال. فإن الإسلامَ يطالبُ أن يُنْصَفَ المظلومُ ولو كان من غير جنسه، وأن يُؤْخَذَ على يدِ الظالم ولو كان من أهله.

عملاً بقول الرسول الكريم ﷺ: « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنْ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ » (٢)

---

(١) النساء: ١١١، ١١٢.

(٢) البخاري: كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه، رقم ٦٤٣٨.

وفي الحديث المتفق عليه، عن أُمِّ المؤمنين عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها أن رسول الله ﷺ قال: « مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنْ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ » (١)

دون تحديدٍ على مَن وَقَعَ عليه الظلم. فالجزاءُ واقِعٌ على مَن ظَلَمَ، ولو كان المظلومُ بعيداً بغيضاً.

وهذا العدل الذي يفرضه الإسلامُ مع العدوِّ والصديق، والقريبِ والبعيد، يُقيمه الإسلامُ أوَّلاً في ذاتِ الإنسان، بين مطالبِ جسده، وفضائلِ رُوحه؛ فإن الإنسانَ - حيثُ كانَ - في حاجة ضرورية إلى التوازن والاعتدال، في كُلِّ حال، دونَ تناقضٍ بين إعطاءِ كُلِّ ذي حقٍّ حقَّه؛ ليكون الإنسان سلاماً مع نفسه - بالحقوق وأداء الواجبات - قبل أن يكون سلاماً مع غيره.

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهما قَالَ: « قَالَ رَجُلٌ لِعَبْدِ اللَّهِ: أَوْصِنِي بِكَلِمَاتٍ جَوَامِعَ نَوَافِعَ. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ: اعْبُدِ اللَّهَ وَلا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَزُلْ مَعَ الْقُرْآنِ حَيْثُ زَالَ، وَمَنْ أَتَاكَ

(١) البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، رقم ٢٢٧٣.

بِحَقٍّ فَاقْبَلْ مِنْهُ وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا، وَمَنْ أَتَاكَ بِبَاطِلٍ فَارْدُدْهُ وَإِنْ كَانَ حَبِيبًا قَرِيبًا » (١)

إنَّ حُبَّ الحقِّ والعمل به دلالةٌ على صِدْقِ الإيمان واليقين. وإن بُغْضَ الحقِّ ومخالفتَه دلالةٌ على اتِّباع الهوى وإيثار الشهوات.

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٣)

من هنا يُعْلَمُ أن معالمَ الحقِّ والعدلِ لم تُتْرَكْ لأهواء الناس وشهواتهم ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (٤)

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: ١٠٢/٩، رقم ٨٥٣٧.
(٢) القصص: من الآية ٥٠.
(٣) ص: من الآية ٢٦.
(٤) المؤمنون: من الآية ٧١.

وإنما أُنْزِلَ الكتابُ بالحقِّ وحُفِظَ؛ لتبقى معالمُ الحقِّ وآياته قائمةً في حياة الخَلق لا تغيب، ودلائل العدل ساطعةً في كُلِّ شأنٍ لا تخفى ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (١)

ذلك سبيلُ الحق. إنه من الله الحق، ولا يُطْلَبُ أو يبقى مُنـزَّهاً خالصاً للعالمين إلاَّ من الله ربِّ العالمين. وهو غَنِيٌّ عن العالمين.

ومن ابتغى الحقَّ بعيداً عن ذلك، ضَلَّ السبيل.

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ (٢)

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٣)

---

(١) يونس: من الآية ٩٤.

(٢) الأنعام: ١١٤.

(٣) يونس: ٣٥.

هذا، ولا أودُّ أن أُطيلَ الكلامَ عن الإسلام بياناً أو تعريفاً؛ فإنه - بحمد لله - قد حُفظَ بحفظِ الله في كتابٍ عزيز، يُذَكِّرُ ويُبَصِّرُ، ويهدي - في كُلِّ شأنٍ - للتي هي أقوم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (١)

وقد حُفظَ عمليّاً في سُنَّةٍ صحيحة مطهرة؛ ليُعرف كيف تكون الأُسوة برسول الله ﷺ الذي أرسله الله رحمةً للعالمين.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٢)

إن الله قد حَفِظَ الكتابَ العزيز، كما حَفِظَ السُّنَّةَ المطهرة.

حَفِظَ البيانَ، كما حَفِظَ المُبَيِّن.

فلا يمكنُ لأحدٍ - كائناً مَن كان، في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ - أن يُبدِّلَ فيهما أو يُغَيِّر، أو يطلب أن يكون الخطابُ الذي أُرسل به الرسلُ، وأُمروا بتبليغه، أن يكون بعيداً عن مقاصدهما وهدايتهما.

---

(١) فصلت: ٤١، ٤٢.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

فإن الله قد حَفِظَهما من التبديل والتغيير، هُدىً وبلاغاً، وإنذاراً للعالمين.

وجعل التمسك بهما حِمىً من الزيغ والضلال، وهدايةً لسُبُلِ الرُّشْدِ والسلام.

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

* * *

(١) المائدة: ١٥، ١٦.

ثانياً: المتغيرات العالمية المعاصرة

أمَّا الأمرُ الثاني - وهو المتغيِّرات العالمية المعاصرة - فإنَّ الحديث عنها يقتضي مصاحبةَ الإسلام؛ حتى نرى الحقيقةَ بلا تعارُضٍ أو تناقُضٍ، بين ثبات حقائقِ الدِّين وثبات المَدَنيَّة.

فإنَّ للدِّينِ منهجاً في إعدادِ الإنسان، لا يقفُ به عند ظاهرِ الحياة الدنيا، بل يَصِله بحكمة خَلقه وغاية وجوده، ولا يفصل علمه بظاهرِ الحياة عن علمِه بحقيقتها وغايتها، ولا يُلهيه بدُنياه عن أُخراه.

وبذا تتحقَّقُ الضوابطُ الخُلُقية التي تَصُونُ الإنسانَ من ظُلمِ نفسه، أو ظُلمِ غيره.

وهذه الضوابط ليست نِتاجَ العلمِ بظاهرِ الحياة الدنيا وإيثارِها، وإنما هي نتاجُ الإيمان بالحياة الآخرة وما فيها، نِتاجُ اليقين بالعَوْدِ إلى الله، والحسابِ بين يديه.

وهذا العلمُ - بهذه السَّعَة - هو الذي يُنشِئُ حضارةً متكاملةً، يُرَى الإنسانُ فيها بقِيَمِه وفضائله وأخلاقه. الإنسانُ الذي يُقدِّمُ خَيره، ويكُفُّ عن الناس شَرَّه، ويبتغي فيما آتاه الله الدَّارَ

الآخرةَ، ولا ينسى نصيبَه من الدنيا.

فما نصيبُ الحضارة المعاصرة من ذلك ؟

وما الأُسُسُ التي تقومُ عليها ؟

وما الآثـــارُ والنتائجُ التي ترتَّبَت عليها ؟

من الواضحِ البَيِّنِ أن الحضارةَ المعاصرة قد أخذت بما يُسميه القرآنُ الكريمُ "عِلْمُ ظاهرِ الحياةِ الدنيا ":

﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾ (١)

و لم ترَ إلاّ الحِسية في المعرفة، والماديةَ في الوجود، والأنانيةَ النفعية في الأخلاق.

وقد اعتبرت العملَ للدنيا - مُجرَّداً عن الآخرة - هو السبيلُ لِرُقِي الإنسان وتَقَدُّمه !

وقد حقَّقَت تفوُّقاً مُذْهِلاً في مجالِ الصناعة، وعلوم الفضاء. بل في

(١) الروم: ٧.

مجالات شتَّى من شئون الحياة، حتى سلبت مظاهرُهَا كثيراً من عقول البشرِ، وغدت مثلاً أعلى عند كثيرٍ ممَّن أُخِذُوا بها، وفُتِنوا بمظاهرها.

وبِقَدْرِ التفوُّق المُذْهِل في انطلاق المادة، ترى التخلُّفَ المُزْرِي في تقدير قيمة الإنسان وحقيقته.

وهذا الواقع يُنْذِرُ بتحولٍ ضخمٍ في حياة البشرية كُلِّها، قد يقودها - إن لم تتدارك ذلك - إلى أسوأ مَصيرٍ.

فإنّ من الخطأ - كُلِّ الخطأ - أن يُخاطَبَ الإنسانُ بما تُخَاطَبُ به الأنعام، دونَ نظرٍ لفطرته التي فُطِرَ عليها.

وهي تنـــزع إلى التساؤل عن حكمة الخَلق، وغاية الوجود.

وهذا ما جاء به الوحيُ، وما أُرسِلَ من أجله المرسلون، وما تُعرِضُ عنه أو تنكره حضارةُ العصر.

مع أن نتائج العلم الباهرة يمكن أن تضعَ في يد الإنسان أساسَ الاعتراف بقوة مدبرةٍ ترعى الكونَ وتصونه، وتُمسك أمره، وتُدبِّر شئونَه.

والكونُ خاضعٌ لسُنَنٍ ماضيةٍ لا تحيد، لا يفلت من عدلِها ظالمٌ أو طاغٍ أو مستبدٌ.

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (١)

إنَّ واقع الإنسانية اليوم تشُدُّه وثباتُ العلم، وتحكمه نتائجُه.

والمسلمون يشُدَّهم ما يشدُّ العالَمَ من حولهم.

لكنَّ الله - بفضله ورحمته - جعل لهم من الأصولِ الثابتة ما يُبقي عليهم في الأحوال المتباينة، والظروف المختلفة.

والأمرُ يتوقّفُ عليهم في تقديرهم للثابت من أمرهم، واعتصامهم به.

فإنَّ لهم مكانتهم - دائماً - إنْ هم أدركوا حقيقةَ الثابت وفطرته، وعاشوا مع المتغيرات، يحكمونها بعقيدتهم، ويُخضعونها لأخلاق شريعتهم.

لقد اصطنعت الحضارةُ المعاصرة فجوةً بين ثباتِ الدِّينِ ووَثَبَاتِ العلم. فجوة تأباها فطرةُ الدِّين، وتنكرها موضوعية العلم.

---

(١) فاطر: من الآية ٤٣.

أُدْخِلَت على المسلمين؛ لِتَزِلَّ قَدَمٌ بعد ثُبوتها.

وقد أعان عليها - في حينٍ من الدهر - سقم فِكْرٍ، وسُوء حال.

لكنَّ فطرةَ الدِّين الحقِّ تأبى إلاَّ أن تُعَبِّرَ عن نفسِها في كُلِّ شيء.

ويأتي العلمُ شاهداً عليها، خاشعاً في محرابها.

إن أقوى ما يحرص عليه الدِّينُ الحقُّ: حُرمةَ الإنسان وكرامَتَهُ، وأَمْنَه وسلامته.

ولا يغيبُ عن أحدٍ أن التغيُّرات الضخمةَ في حياةِ البشرية قد جعلت من الإنسان أرخصَ شيءٍ في مجالِ التنافس المسعُور على الهيمنة، وطلبِ العُلو، والانفراد بالتفوق.

وغَدَت الإنسانيةُ - في كُلِّ مكان - تَنْشُدُ ما هو أفضلُ وأقومُ؛ من بعد ما لاقَتْ من ويلاتٍ وأزماتٍ، في حروب ساخنة وباردة، خلَّفَت من ورائها أشلاءَ أُممٍ، ومُومياءَ شعوبٍ.

وقد اقترنت هذه التحولات - بما أُذِيع وأُشيع - عن بُشْرى وفاقٍ بين الكُتَلِ المتصارعة، وإنهاءِ الحروب الباردة والساخنة.

وما إنْ بَدا الأملُ في غدٍ أفضل، وتطلَّع الناسُ إلى فجرٍ جديد،

تُصَانُ فيه الحقوقُ، حتى تفجَّرت المشاكل، وتهيأت المطامع، وازداد خوفُ الإنسان من أخيه الإنسان !

واستيقَن الناسُ أنَّ ما حسبوه ماءً، لم يجدوه شيئاً. وأنَّ ما بدَا من وفاقٍ بين الكُتَلِ، لا يحمل - في طيَّاته - أَمَلاً لِغَدٍ أفضل للأمم المغلوبة، والشعوب المنكوبة.

فإذا كانت أقواتُ الجياعِ - من قَبْلُ - قد حُشِرَت في بطونِ المدافع، وفي إعدادِ أسلحة الخراب الفاجع، والدمار الشامل، فإن الذين تطلعوا إلى الغد المنشود لم يلبثوا أن رأوا أن التخلص من أسلحة الدمار الشامل يخضع لموازين الأقوياء من أصحاب المصالح والمطامع، الذين لا يرون للشعوبِ شأناً، ولا يُقيمون لمصالحها وَزْنَاً.

كم أنفقوا في إعداد هذه الأسلحة ؟

وما معنى إعدادها لناسٍ - لهم مطامعهم - وحصار كامل على الآخرين ؟

وكم يُنفقون في التخلُّصِ منها، أو نفايتها إنْ أرادوا ؟

وفي أيِّ مكانٍ يكون التخلص من هذه النفايات ؟

وكم شَقيت شعوبٌ، وتشقى من تقلُّبِ الأحوال وتغيُّرِ أمزجة المُسَيْطِرون ؟

لا شكَّ أنَّ كُلَّ ما وقع - ويقع - هو على حسابِ أقواتِ الأمم، ومُقدَّرات الشعوب.

عناء - أي عناء - يلقاه الإنسانُ في ظلِّ المنافسة على غُلوٍّ في الأرض تحكمه الغرائزُ، وفسادٍ تقوده الأهواءُ والشهوات، وحضارةٍ حاكمةٍ مسيطرةٍ قد عدَّت العملَ للدنيا - مُجرَّداً عن الإيمان بالآخرة - هو السبيلُ لرُقيِّ الإنسان وتقدُّمه.

ولم تُقم وَزْناً - على الإطلاق - لمعرفة الله وخشيته، وإقامة العدل؛ استجابة لرسله. فأفلتَ زِمامُ المادة، واختفَت قيمةُ الإنسان بعد أن أُهْدِرت حقوقُه، وسُحِقَت كرامتُه.

لقد غدا كُلُّ شيءٍ في الحياة ذات قيمةٍ إلاَّ الإنسان !!

إنه أزهد شيءٍ وأرخصُ شيءٍ في مُقدرات التنافس المسعور على المتاع والحطام.

فقد صار - في كثيرٍ من الأحوال - وَقُوداً لحربٍ فاجرة،

باردة أو ساخنة. وترى سماسرةَ التكاثرِ لا يُقيمون له وَزْنًا من المكاسب التي تأتيهم من تجارة السلاح، وَبَيْعِ أدوات الخراب والدمار.

ومخازنُ الكبار تُفْتَحُ على مصراعَيْها؛ لتبيعَ من ذلك بالمليارات لشعوبٍ تفقد الحدَّ الأدنى من الأقواتِ أو الضرورات !!

وإذا نحنُ تأمَّلنا ما يُسمَّى بـ (الضمير العالمي) - وهو يُعالِجُ قضايا البشر من خلالِ منظَّماتٍ أو مؤتمرات - وجدناه لا ينظرُ إلى قضايا الأُممِ والشعوب من خلالِ التقدير أو الاحترامِ لكرامة الإنسان، بل من خلال نزواته وشهواته، وما يعودُ عليه من حُطام.

ولقد بَدَا واضحاً أنَّ المنظمات العالمية - مع ضرورتها - لم تستطع - مع سيطرة أصحاب الهَيمنة - أن تُقيم في العالمِ سِلْماً، أو تُحقّقَ للناسِ أَمْناً.

فإنَّ السِّلْمَ - في حقيقته - يرتبط بصفاتِ النفس، ونزاهة القَصْدِ، وإقامة العدل، والأمنَ - في جوهره - يرتَكِنُ إلى الإيمان والقِيم والأخلاق.

وما دام الأمنُ والسِّلْمُ يرتبطان بصفات النفس، ويتصلان

بالقِيم، فلا بُدَّ من فرارٍ وعَوْدٍ.

(فرار) إلى مَن خَلَقَ النفسَ وهَداها، وأرسل من أجلها رُسُلَهُ، وأَنْزَلَ كُتُبَهُ.

(وَعَوْد) صَدُوق إلى ما جاء به أنبياء الله تعالى ورُسُله.

وعندئذٍ سترى الإنسانيةُ أنَّ الأمنَ ما فُقِدَ إلاَّ يومَ أن تحطَّمت دعائمُه - من العدل والحق - دون نظرٍ إلى النتائج والعواقب.

وأنَّ السِّلْمَ ما عَزَّ إلاَّ عندما تعطَّلت أسبابُه، من التعارُفِ والتعاوُنِ على البرِّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

فلا بُدَّ من الفرارِ والعَوْدِ؛ للوقوفِ على حِكمة الخَلق، وغاية الوجود؛ حتَّى نُحْسِنَ كيف نَحْيَا بثابتٍ في مُتَغَيِّرٍ.

نحنُ - جميعاً - خَلْقُ الله. أنْشَأَنَا، ورَزَقَنَا، وإليه مصيرُنا ومآبُنا.

وأيُّ علاجٍ لقضايا الخَلق - دون تقديرٍ لأمرِ الخالق - إنْ هَوَ إلاَّ تدمير للإنسانية، واستخفافٌ بمصيرها، وسقوطٌ بروابطها إلى وادٍ مُظْلِمٍ سحيق.

إن الدِّينَ - في جوهره - إيمانٌ بالخَالق، وبِرٌّ بالمخلوق، كما

جاء به المرسلون.

وبذلك تُصانُ نتائجُ العلم، وتتحقَّقُ الخشيةُ التي خَصَّ اللهُ بها العلماءَ. وهذا الجانب الذي يُفقهه المسلون - بثباتِ القرآن وبقائه - تفقده الإنسانيةُ في كثير.

فترى نتائج العلم - في شرقٍ أو غربٍ - أسيرةَ مذاهب لا تُقَدِّرُ قيمةَ الإنسان، ولا تحفظُ حُرْمَته.

أي: لا تتعامل بقِيَمٍ تستندُ إلى أصلٍ ثابتٍ، كما يستند المسلمون - في جميع أعمالهم - إلى هذا الأصل.

ولذا نرى نتائجَ العلم في أيدي هؤلاء - الذين ترتبطُ دوافعُهم بمنافعهم - نراها مُدَمِّرَةً ظالمة، مُمْتَدةً بالبطشِ والذُّلِ إلى كُلِّ شيءٍ.

حتى إلى المنظمات العالمية التي أُقيمت بدعوى الحفاظ على حقوق الإنسان !

فما أسرع ما ترى شُعلتَها وقد انطفأت، وكلماتِها وقد خَبَت.

لأنَّ قوياً - يملكُ حَقَّ الاعتراض أو الرفضِ - قد ظَهَرَ في الأُفق !

فلا جَدْوَى لقراراتها، ولا قيمةَ لبحوثِها، ما دام في عنصر

تكوينها إعطاء حق لواحدٍ لا يُعطَى لآخر؛ لأنه لا يملك من أسباب القوَّةِ والغَلَبَةِ ما يملكه الآخر.

ومن هنا نستطيع أن ندرك: من أينَ جاء الخطرُ على مقدَّرات المسلمين ؟ وكيف يزول ؟

جاء الخطرُ حين أدْخَلَ العدوُّ على المسلمين أن المتغيرات لا ارتباطَ لها بدينٍ أو يقينٍ، فأغرى المسلمين بالمتغيرات، وألقى في حسهم قبولَها، والعملَ على اللحاق بها، بعيداً عن الثوابت التي لا تُصانُ المتغيرات - لمصلحة الإنسان - إلاَّ بها.

وأُغْرِي المسلمون بالإقتداء بِمَن وُصِفُوا بـ (التقدُّم)، دون نظرٍ أو تدبر.

وقد لوَّح لهم بالسَّبْقِ إنْ هم ساروا على منهجه، وسلكوا طريقه.

وقامت في ديار الإسلامِ نَعَرَاتٌ ومذاهبُ كُلُّها تنادي بالمتغيرات كما عُرِفَت في ديار القوم.

وعملت - عامدة - على إلصاقِ كُلِّ تَخَلُّفٍ بالأصل الثابت من حقائق الدين، ورَمْيه بـ (الجمود) و (الرجعية) !

وقد فُتِنَ كثيرون بما رَأَوْا من نهضةٍ عند الغير، ومن تَخَلُّفٍ في ديارِهم.

فردَّدُوا أقوالَ أعدائهم دون تدبُّرٍ.

وأرادوا أن يَحْمِلوا أُمَّتَهم على ما رَسَمَهُ العدوُّ لهم، من جحودِ الأصل الثابت، والتنكر له.

وصَحَا (الفكرُ الإسلاميُّ) المتأملُ، يُنَبِّهُ ويُذكِّرُ، ويُوضِّحُ ما عليه حضارة الغير من نَقْصٍ، وما تحمل - في طيَّاتها - من مخاطرَ لأهلها، أو للإنسانية جميعاً.

وأوَّلُ هذه المخاطر: أنه ليس لدى الغيرِ - من الأصل الثابت - ما يجعل النتائج تمضي في البرِّ بالإنسان حيث كان، وحِفْظ حقوقه وكرامته.

وأكبرُ مَثَلٍ على ذلك: ما تتعرَّضُ له ديارُ المسلمين نفسها من ظلمٍ وجَوْرٍ.

وقد كان منطقُ الفكرِ الإسلاميِّ راشداً مُخلصاً عندما دَعَا إلى الأخذ بالمتغيرات، والسَّبق فيها، على أساسٍ من الأصل الثابت الذي يصونُ النتائجَ، ويحفظ الحقوقَ في الظروف المتباينة، ويجعلها تصمد

أمام المخاطر والمتغيرات.

ونجحت خُطَّةُ العدوِّ في الفَصْلِ بين الأخذِ بالمتغيرات، والمحافظةِ على القِيم والثوابت، حتى وُجِد ناسٌ - في كثيرٍ من ديارِ المسلمين - يُنادون بما يُحبّ، ويعملون بما يرغب، ويُصوِّرون لأُمَّتهم أنهم يقودُنها إلى النصرِ والتقدُّمِ، والرفاهية والعزِّ..

إلى هذه الكلمات التي فَقَدَت مدلولَها.

وقد أدرك الكثيرُ - بعد تجاربٍ مريرة، ومتغيِّرات كاسحة - أن القِيَمَ حين تهبط، والشهواتِ حين تُسيطر، يجد العدوُّ مجالاً خَصْباً لتحقيق مآربه وشهواته، بشراء العملاءِ والخَوَنَةِ الذين يبيعون أُمَّتَهم بلذّةٍ عاجلة، أو منفعةٍ زائلة.

وحيث يقوى الجانبُ الأخلاقيُّ - المُستَمَدُّ من الإيمان بالله وحده - يجد العدوُّ نفسَه أمام بُنيانٍ قويٍّ، تطيشُ أمامَهُ سهامُه، وتتبدَّدُ أحلامُ.

ومن أعجبِ العَجَبِ أن ترى أنه في الوقت الذي يُدرك فيه العلماءُ أنفسُهم أنَّ العلمَ يدعو إلى الإيمان - وقد بدا أكثرُهم مُلحداً - في ذلك الوقت يُرادُ للعلم التجريبي أن يُساقَ إلى الديار الإسلامية

منفصلاً بتجاربه عن الدِّين، الذي هو الأساس في المعرفة بشتى صُوَرِها، هُنا وهُناك !

نحنُ لا نعرفُ لأنفسنا عزّاً بغير ما أعزَّنا اللهُ به (وهو الإسلام)، ولم نَرَ في تاريخنا نصراً إلاَّ بالإيمان.

وأعداؤنا قد عرفوا - تماماً - مقوِّمات شخصيتنا، ومَوْطِنَ حِصنا وعصمتنا، فعملوا على تغيير شخصيتنا؛ بإبعادها عن حِصنها وعزِّها.

وعندما رأوا أننا نسعى إلى الأخذ بالعلم التجريبي، مع المحافظة على هويَّتنا وشخصيتنا - وهي شخصيةٌ لها طابعها ومقوِّماتها، وتصوراتها وغايتها - عملوا على إذابة هذه الشخصية، أو ضياعِها بشتَّى الوسائل؛ حتى لا يستطيعَ المسلمُ صَوْغَ حياةٍ إسلاميةٍ تنفع وتنتفع بنتائج العلم في حراسة الإيمان، وتسعى في الأرض عاملةً راشدةً، مُنتِجَةً بدافعِ اليقين.

عملوا على ألاَّ تتميَّز شخصيتنا بهذا الاتجاه؛ لأنهم يعلمون أنه عندما تتميَّزُ شخصيتنا بهذا الاتجاه - الذي يُؤثِر المحافظةَ على كرامة الإنسان وحقوقه — وأن يحيا حُرّاً بإبائه العبودية لغير الله، يعلمون أن ناساً كثيرين - في دُوَلٍ شَتَّى - تطلَّعت نفوسُهم - زَمَناً طويلاً - أن

يَرَوا على الأرضِ إنساناً، سيهشون لبقاء أمة الخير قائمةً برسالتها، يُستَجَارُ بها كما استُجيرَ من قبل، وهي لا تُفرِّقُ - حين تُجيرُ - بين عدوٍّ وصديقٍ، وإنما تبذل الخيرَ للناس جميعاً، وأبناؤها ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ (١)

إن الإسلامَ هو دينُ الحقِّ، وهو الدِّينُ القادرُ على إقرارِ السلامِ في الأرض؛ لأنه قادرٌ على تأليفِ الأجناس والألوان.

قادرٌ على إشاعةِ السماحة والوُدِّ والتراحم، وعلى تنقيةِ الحياة من سموم التحاسد، والتطاحن والتناحر.

يقول "مستر جيت" في كتابه "حيثما يكون الإسلام":

« ولكن الإسلامَ ما زال في قُدرته أن يقُدِّمَ للبشرية خدمةً ساميةً جليلةً، فليس هناك أيَّة هيئة سواه يمكن أن تنجحَ نجاحاً باهراً في تأليف الأجناس البشرية المتنافرة في جبهةٍ واحدةٍ أساساها المساواة. فالجامعة الإسلامية العظمى في إفريقيا والهند وإندونيسيا، بل الجامعة الصغيرة في الصين، وتلك الجامعة الضئيلة في اليابان، لَتُبيِّنُ كُلُّها أن الإسلام ما زالت له القُدرة التي تسيطر كُليَّةً على أمثال هذه

(١) الفتح: من الآية ٢٩.

العناصر المختلفة الأجناس والطبقات، فإذا ما وُضعَت منازعات دول الشرق والغرب العُظمى موضع الدَّرسِ، فلا بُدَّ من الالتجاء إلى الإسلام؛ لِحَسْم النـــزاع أ.هـــ »

وعلى هذا، فإذا أُهْمِلَ الإسلامُ، فلا سَلامٌ.

وإذا ضُيِّعَت فرائضُه وأحكامُه، فَمَن يقومُ حَكَماً بين الناس ؟

لن يقوم بينهم إلاَّ الهوى، يتحكَّمُ في شئونهم، ويذهَبُ بهم في أوديةٍ شَتَّى، ويُضلهم عن سبيل الله، سبيلِ السلام والفوزِ والفلاح.

وإذا تحكَّم الهوى بين الخَلق، عَمَّ الفسادُ، وشاعت الفتنة.

إننا مُطالَبون - بأمرِ ربِّنا - لكي نُحقِّقَ السلامَ للإنسانية كُلِّها.

أن نُحَكِّمَ شَرْعَ الله فيما بيننا، وأن نرضاه حَكَما في علاقتنا مع غيرنا. وأن نستمع - في طاعة وإنابة وخشوعٍ - إلى كلمات الله وهي تُذكِّرنا بالعواقب، عواقب البُعْدِ عن دين الله، ومخالفة أمره، بل عواقب الفتنة في حياة الناس الخاصة والعامة، حين نَحيدُ عن الاستجابة لحُكم الله، ونميل إلى اتِّباع الهوى والشهوات.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ

لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (١)

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٢)

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (٣)

إن علاجَ قضايانا يبدأُ من أنفسنا، ولن تُعالَجَ بغيرِ صِدْقِ الولاءِ لطاعة الله، وإخضاعِ كُلِّ شيءٍ لإعلاءِ كلمته.

---

(١) النساء: ٦٥.

(٢) المائدة: ٤٩، ٥٠.

(٣) آل عمران: ١٢٠.

ولم أر شيئاً قد فتح بابَ الشرِّ على المسلمين كَفُرْقَتِهم، وفسادِ ذاتِ البَيْنِ.

ولم أرَ سبيلاً لصلاح الأمور غيرَ اعتصامِنا - جميعاً - بحبلِ الله، متوادِّينَ غير مُتفرِّقين.

وأن نعلم - علمَ اليقين - أنَّ ترابُطَنَا وَوَحْدَتنا من متطلبات العصر، بل من فرائضِ الدِّين ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾(١)

وسيكونُ من دواعي السخرية بنا أن نكونَ سِلْمَاً مع عدوِّنا، حَرْباً على أنفسنا!

إنَّ من الوسائل التي عملت لصالحِ العدوِّ، وقدَّمت له ما لم يكن يُحْلُمُ به (تَفْرِيقُ الكلمةِ).

وهو مقصودٌ أساس لعدوِّنا، يستطيع به أن يسودَ مَتى أراد.

إنَّ أوَّلَ الطريقِ لإرغامِ العدوِّ على قَبول الحقِّ، وإخضاعِه له، هو أن تَفِرَّ هذه الأُمَّةُ إلى الله، مُوحَّدَةً على الطاعةِ لله ورسوله.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن

---

(١) المؤمنون: ٥٢.

يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

إننا لا نُضْمِرُ لأحدٍ عداءً، وإنما نُحبُّ للناس جميعاً سَلاماً.

السَّلامُ الذي شرعه الله؛ رحمةً بعباده، لا السَّلامُ الذي تفرضه الأهواءُ؛ رغبةً في العُلُوِّ والفساد.

إننا لَسْنَا بروتوكولاتٍ سِرِّية، وإنما نحنُ أتباعُ كتابٍ يُتْلَى على العالَمِ كُلِّه.

وليس في مقدورِ شخصٍ أو قوَّةٍ - في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ - أن تُخفِي حَرْفاً واحداً منه، وأن تُغَيِّرَ خِطابَه كما تشتهي، أو تقولَ عنه ما ليس فيه؛ لأن الله الذي يُمسِكُ السمواتِ والأرضَ أن تزولا، هو الذي ضَمِنَ حِفْظَهُ وبقاءَه.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢)

وهذا الذِّكْرُ الحكيمُ هو الذي يُحدِّدُ علاقتنا مع الناس،

(١) الأحزاب: ٣٦.
(٢) الحجر: ٩.

ويوضِّحُ لنا أعداءَنا بأعمالهم، لا بأنسابهم وألوانهم. ومنه نستمدُّ معرفتَنا بأنفسِنا، وبالناسِ من حَوْلِنا.

فَلَسْنَا في حاجةٍ إلى مَن يرشدنا إلى الحقِّ، والقيامِ بين الناس بالقسط.

إن السَّلامَ في تصوُّرِ اليهود هو: القضاءُ على إسلاميةِ الأرض، وفَرْضُ الصِّبغة اليهودية عليها.

وإنَّ محْوَر الشخصية الإسلامية - للأرض والأُمَّةِ - جَرَى إعدادُه وتنفيذه بعنايةٍ.

وطريقُ السلامُ هو استردادُ الشخصية الإسلامية، وتهيئة أسباب القوَّةِ العادلة التي تفرض سلامَ الحقِّ، لا سلامَ (الأمرِ الواقع) الذي يعني ضياعَ الأرض والأُمَّةِ والسَّلام.

ولو أطعنا فريقاً من هؤلاء، لَوَقَعَ ما أخبرَ الله به، وحذَّر منه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ۝ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ

تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ (١)

فنحنُ - بحمد الله - دُعَاةُ حقٍّ وعدلٍ، وأُمَّتنا رسالتها خيرٌ ورحمةٌ، وبأيدينا منهجٌ بَيِّنٌ لا يغيب، وأمامنا نورٌ نمشي به في الناس ولا نَحيد.

وبه ومنه نُنادي الناسَ جميعاً ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ (٢)؛ لِنُحَقِّقَ التعارفَ والتعاونَ على البرِّ والتقوى، ونقوم جميعاً بالقسط الذي بعث الله جميعَ المرسلين به، وسيسألنا جميعاً عنه.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٣)

---

(١) آل عمران: ١٠٠، ١٠١.
(٢) آل عمران: من الآية ٦٤.
(٣) الحديد: ٢٥.

والخلاصـــة:

أولاً: نحنُ المسلمين - بدافعٍ من دِينِنَا - ندعو إلى الإفادةِ من إيجابيات الحضارة المعاصرة، وإنمائِها إلى أقصى حَدٍّ، وأبعدِ جُهْدٍ، وطَرْحِ السلبيات التي تسيء إلى كرامةِ الإنسان، وتُبعده عن حكمةِ خَلقِه وغايةِ وُجودِه، بما تَجيئه من أسبابِ الانحرافِ والفساد؛ حتى لا تَهْدِمَ الحضارةُ ما عمَّرت، وتسوق الفناءَ إلى ما شيَّدت من بناء.

ثانياً: نرجو أن يكونَ العدلُ أساساً في التعاملِ بين الخَلق دونَ تفرقة، وهذا ما أرسل الله به الرسلَ جميعاً، وأنزل من أجله الأسبابَ؛ يمتحنِ الناسَ بها، أينصرون حقاً ؟ أم يُقيمون باطلاً ؟

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

ثالثاً: نحن مأمورون أن نُنْصِفَ الحقَّ والعدلَ من أنفسِنا قبل أن

نطلُبَ إنصافَه من غيرِنا؛ عملاً بقولِ ربِّنا: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ (١)، واستجابةً لفعلِ رسولِنا ﷺ في مناصرةِ المظلومِ ولو كان من غيرِنا، والأخذِ على يدِ الظالمِ ولو كان منَّا.

ونعتبر ذلك من أُولَى العوامل التي يُقامُ بها - بين الناس - سِلمٌ وأمْنٌ؛ إذْ لا يمكنُ - أبداً - لسلامٍ وأمْنٍ أن يقوما بين الناس على جَوْرٍ وظُلم.

فإن للسَّلام جَنَاحَيْن: حَقٌّ، وعَدْلٌ. إن ضُيِّعَ أحدُهما، سقط السلامُ كما يسقطُ الطائرُ حين يَفْقِدُ أحدَ جناحيه.

والحقُّ والعدلُ فطريٌّ، لا تجحده ضمائرُ العقلاء وإن اختلفت مذاهبُهم، وتعددت مآربُهم.

ونحن ننادي به، وندعو إليه، ونرى أنفُسَنا - أو غيرَنا - ظالمين إنْ لم نستجب له.

رابعاً: إنَّ إقرارَ البغي مَدْعَاةٌ للمضيعة والشئوم. وإنَّ اتِّباعَ الهوى ضلالٌ عن سبيلِ الله. ولا إنقاذَ للإنسانيةِ من واقعٍ مؤسفٍ -

(١) النساء: من الآية ١٣٥.

في العلاقات فيما بين الناس - إلا باحترام ما أُقيمَ من مؤسسات، يحتكمُ إليها الناسُ دون أن يتفرَّدَ أحدٌ بحُكْمٍ، أو يُخضع هذه المؤسسات لهيمنة القوَّة، ويتعامل مع العالم معاملةَ الواحدِ الفرد !

وَمَن اسْتَبَدَّ بِهِ الهَوَى عَبَدَ الهَوَى وَمَن اسْتَجَابَ لِمَنْطِقِ الحَقِّ اهْتَدَى

وسنظلُ - بدافعٍ من ديننا - ندعو إلى الإنصافِ والعدلِ، والحفاظِ على حقوق الناس، دون ادِّعَاءٍ أو استغلال.

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١)

خامساً: إنَّ ما وقع في أمريكا كانت له آثارُه البالغة، لا في أمريكا وحدَها، بل في العالم كلِّه بطرائقَ شتَّى.

ذلك أن الحدَثَ - مع ضراوته - قد أخرج أمريكا نَفْسَها عن التوازن والاعتدال، وجعل الأحداثَ والمتغيراتِ تتوالى دون توقُّفٍ أو انقطاع.

---

(١) القصص: ٥٠.

وأخطر هذه الآثار: ما أصابَ العالَمَ العربيَّ والإسلاميَّ من شُبهةِ الاتهام، وما ترتَّبَ على ذلك من مسارعةٍ في إثبات أو نفي أننا في حروبٍ صَليبية.

ولم تكن الشعوبُ الإسلاميةُ بحاجة إلى القول بذلك أو نَفْيِه؛ لأن الوقائع والتصرفات كانت أبلغَ من كُلِّ قولٍ.

وكفى العالم أن يرى ما هو واقعٌ في فلسطين، والعراق، وما تَمَّ من تحرُّكِ القوات الأمريكية - ومَن يساندها - بوسائلَ حربية لم يُرَ مثلُها من قبل في حروبٍ عالمية، وهي تستهدفُ بلداً إسلامياً يعيش في ضَنْكٍ من العيش، وآلامٍ بالغةٍ من الحصار.

كُلُّ ذلك وغيرُه كان له دلالته فيما يُرادُ بالعالم الإسلامي، ونسبة الإرهاب إليه دون سواه، مما جعل الناسَ جميعاً يَفيقون لأمرٍ ذي بالٍ، وهو ما يترتَّبُ على تصرف أمريكا في مُقدَّرات أُمَمٍ وشعوبٍ لها مصالحها وعقائدها، بل ولها صلاتها الوثيقة بأمريكا نفسها، وهي لم تسلم من تلويحٍ وتلميحٍ باتهامٍ بإرهاب وعقاب.

ولا شكَّ أن المتغيرات المتلاحقة قد أفرزت انفرادَ أمريكا بالحُكم على الأشياء من وجهة نظرِها، ومراعاة مصالحها، دون مصالح الآخرين.

ولكن العالم كُلَّه - ومعه المنصفين من كافة الشعوب - أخذوا يتأملون ما يكون من أمريكا إزاء الوقائع والمستجدات، وما ينتظرونه من حكمةٍ وعدلٍ وإنصافٍ، وبخاصة في مشكلة المشاكل كُلِّها "مشكلة فلسطين" أو ما يُسمّونها "مشكلة الشرق الأوسط" ليكون لإسرائيل في محيطِ هذه التسمية ما يرون أن يكون.

وشاء الله أن يكون ضمن المتغيرات في عالمنا المعاصر وسائل إعلام متعددة، وفضائيات متنوعة، تُري الناسَ ما هو واقعٌ على أرض فلسطين، وغيرها.. تُريهم ما يكون من إبادةٍ وتشريدٍ، واغتصابٍ وتقتيل.

سادساً: وبسبب هذه المشكلة، وغيرها أخذ العالَمُ كُلُّه يتأمَّلُ ما يكون من أمريكا ذاتِ الروابط العميقة بكثيرٍ من دول الشرق، وصاحبة المصالح الحيوية التي لا يجهلها أحدٌ.

أخذت شعوبُ العالم العربي والإسلامي تنتظر ما يكون منها - بالتحديد - من عدلٍ وإنصافٍ في هذه القضية.

وهي تعلم ما يُقدَّمُ منها لـــ "إسرائيل" ومن إيثارِها - دونَ مُبالاةٍ - بالأسلحة المحرَّمة على غيرها.

وهم يتساءلون - جميعاً وبلا أدنى استثناء -: ما دلالة ذلك من

دولةٍ لها مكانتها وتقديرها في المناداة بالديمقراطية، وتقرير الحقوق ؟

وليس عند الجميعِ إلا تفسير واحد، هو: الكيد للإسلام، وأُمَّةِ الإسلام، دون تقديرٍ لنتائجَ أو عواقب.

سابعاً: ومع البيان الهادئ من الدول العربية والإسلامية، وتبصير الخليفة الكبرى بخطرِ موقفها على مصالحها أوَّلاً؛ حتى لا تكيل بمكيالَيْن يكون في أحدهما حُكم على الضحية بأنها ظالمة معتدية تُوصَفُ بالإرهاب، وحُكْمٌ على المعتدى بأنه حَمَلٌ وديعٌ يُوصَفُ بالعدل والإنصاف، وهو الدخيل المغتصب الذي أُعطي حق الاغتصاب والاستيطان، وهو يُسانَد مرات ومرات ومرات، بجانب القوة التي تمنحها له أمريكا بحقِّ "الفيتو"؛ لِمَنْعِ أيِّ قرارٍ يدينه، أكثر من سبعين مرَّة.

كُلُّ ذلك ملأ النفوسَ - في كُلِّ مكانٍ - باليأسِ والإحباط من رؤية عدلٍ أو إنصاف، ترعاه الخليفة الكبرى التي تنفردُ بحلِّ المشاكل !

وإذا كُنَّا نرى التهديدَ مسلط - في كثيرٍ من الأحيان - على المسلمين، والاتهام بالإرهاب مُلْصَقٌ بالإسلام، فإن ذلك قد أدَّى إلى وجودِ صحوةٍ عامة، لا في ديار المسلمين فحسب، بل في العالم كُلِّه.

إنها صحوةُ الضمير الإنساني، ويقظة لها دوافعها، تظهر في صورٍ وأشكال متعددة في كُلِّ مكانٍ بما يناسبه.

صحوةٌ تُنبئ عن أنَّ الإنسان - في كُلِّ مكانٍ - يأبى أن يُستعبد أو يستكينَ لَمن استبدَّ أو طغى عليه.

والإسلامُ بفطرته هو القادرُ - بما اشتملَ عليه - على تحرر الإنسان تحرراً عادلاً مُنصفاً؛ حتى لا يتخلص من أَسْرِ غيره ويُؤْسَر بهوى نفسه. ولذا جعل صحوةَ الإنسان مصُونة بالقيام بالواجب، وأداء الحقوق.

ومَن تدبَّرَ القرآن واهتدى بهُداه، عرف كيف يُحَرَّر الإنسانُ من العبودية لغير الله.

وهنا تكون الضوابط السليمة لإقامة الحقِّ والعدل بين جميع الخَلق؛ حتى لا يتَّخذَ الناسُ بعضهم أرباباً من دون الله.

إن الأزمات الطاحنة تُحيط بالناس في صُوَرٍ شتَّى، وأشكال متنوعة. وعوامل الفساد والدمار - التي تتفاقَمُ في حياتهم - جعلت الإنسانيةَ جميعاً تتنادى - بصورة علنية وعالمية - للتعاون على دَرْءِ الخطر ومُحاصرته، ومعاقبة السَّاعين في الإفساد، والدَّاعين إليه، والمروِّجين له.

وعالمنا المعاصر - في وَثْبَتِه في أبعاد الكون - ينشُدُ مَن يهديه إلى الحقِّ، في إيمانه بخالقِ الكون؛ لكي يُحسن كيف يتعايش في الأرض متعاوناً مع غيره على الخير.

ويُخطئ مَن يتأمَّل الحضارةَ بعيداً عن الإنسان؛ فإن الحضارة ما قامت إلاَّ به، وله.

ومن الجحود لحقِّ الإنسان أن يكونَ أرخصَ شيءٍ فيها.

ذلك أن مفهومَ "الحضارة" قد بَعُدَ كثيراً عمَّا يجب أن يكون؛ فإن الحُكْمَ على حضارةٍ ما يقتضي النظرَ في مكانة الإنسان وقيمته في هذه الحضارة، وهل يحيا فيها مُدركاً لحكمة خَلقه، وغاية وجوده، حتى يُحسنَ إلى غيره ؟ أم يعيش فيها فَرداً لنـــزواته، وعبداً لشهواته، ولو هلك الآخرون ؟

إن الحضارةَ التي تملك من القوة ما تملك، وتُهمل إيمانَها بمن له القوَّةُ جميعاً والعزة جميعاً، ستبيد كما بادت حضاراتٌ من قبل. شيَّدت بُنيانَها، وفَقَدت إيمانَها، ونسيت من أعطى كُلَّ شيءٍ خَلْقَه ثم هَدى.

فطغت وأفسدت، وبقيت آثارُها أطلالاً تُحدِّثُ وتُحذِّرُ، وتُبصِّرُ وتُذكِّر. ومهما بلغت حضارةُ أُمَّةٍ ما – في زمنٍ ما – من قوَّة وكثرة، فإنها مُعرَّضة للإبادة، إنْ هي كفرت بنعمة الله، ولم تشكره في البرِّ بخَلقه، وطغت وبَغَت، ورأت نفسَها؛ إعجاباً بما هي مُستَدْرَجَةٌ به، ففَقَدت العدل والإنصاف، وأعانت على الظلم والفساد.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١)

إننا - نحن المسلمين - ننشدُ الرحمةَ للخَلق جميعاً، ومَن لا يَرحم لا يُرحَم، وننشدُ السلامَ للإنسانية جميعاً. ودين الله - بحمد الله - هو دينُ السلام، اسمه وحقيقته.

ونحن - بدافعٍ من ديننا - نُنادي أن ندرس الوقائع والمتغيرات بتجرُّد وإنصاف؛ حتى لا يُساء إلى أحد بلا ذنب، أو يُتَّهَم بلا جريمة وقصد. وعندئذ ستجدُ الأممُ جميعاً أننا نعرفُ لكُلِّ عاملٍ قَدْرَه، ونحفظُ لكُلِّ مُنصفٍ عَدْلَه.

ونحن نؤمن بالعاقبة والحساب بين يدي الله، دون رَيب أو شك.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٢)

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

---

(١) الحج: ٤٨.

(٢) الأنبياء: ٤٧.

سبيل الحفاظ على وحدة المسلمين
وأسباب تفرقهم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على المبعوثِ رحمةً للعالمينَ، سيدِنا ومولانا محمدٍ. صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين.

وبعـــد..

فـــإنَّ الأصلَ في أمرِ المسلمين - وهم أُمَّةُ التوحيد - أن يكونوا مُوَحِّدين في غـــايتهم وأهدافهم، وأن تكون جميـــعُ أعمالهم لإعلاءِ كلمة الله. امتثالاً لأمرِ ربِّهم، واتِّباعاً لسُنَّةِ نبيِّهم.

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (١)

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٣)

وفي الحديثِ المتفق عليه، عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه قَالَ:

---

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) الأنبياء: ٩٢.

(٣) المؤمنون: ٥٢.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » (١)

فالوحدة بين المسلمين هي الأصلُ، والفُرقة عارضةٌ، تقوى وتضعُف تَبَعاً لقوَّةِ الأسباب وضَعفِها، وتمتدُّ تَبَعًا لفساد النفوسِ وصلاحِها.

وفي جميعِ الأحوال يبقى الكتابُ المحفوظُ بحفْظ الله مُعَبِّراً عمَّا يجبُ أن تكون عليه هذه الأُمَّةُ، وتبقى السُّنَّةُ الصحيحة مُبَيِّنَة - بأسلوب القُدوة والأُسوة - التطبيقَ العمليَّ لما أُنزِل على رسول الله ﷺ.

« صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي »(٢)

« خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ » (٣)

---

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٤٦٨٥.

(٢) البخاري: كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة، رقم ٥٩٥.

(٣) النسائي: كتاب مناسك الحج، باب الركوب إلى الجمار واستظلال المحرم، رقم ٣٠١٢.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ »(١)

وفي رواية: « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ »(٢)

ومن كتاب الله وسُنَّة الرسول ﷺ نستطيعُ أن نتبيَّنَ سبيلَ الوحدة، وأن نعرف أسبابَ الفُرقة، فنتجنَّب هذه، ونتَّبع ذلك كما أمر الله ﷻ في كتابه: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾(٣)

تعودُ أسبابُ الفُرقةِ - كما أجملها القرآنُ - إلى عواملَ من داخل النفس، وعوامل من خارجها. وما كان من خارجها لا يصيبها في شيءٍ إلاَّ إذا كان في النفس استعدادٌ للتقبُّل، وطواعيةٌ للاتباع.

---

(١) البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، فالصلح مردود، رقم ٢٤٩٩.

(٢) مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم ٣٢٤٣.

(٣) الأنعام: ١٥٣.

فتكون النتيجة عقاباً؛ للخروج من الحقِّ إلى الباطل، والعودة إلى الكفر بعد الإيمان.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ (١)

ففي الآيتين جاءت النتيجةُ مُترتِّبة على الطاعة، طاعة المؤمنين للكفار فيما أرادوا، أو زيَّنوه من سُوءٍ وكَيد.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (٢)

ففي هذه الآية ترى العاملَ الخارجي لإضعاف المسلمين وإفساد

(١) آل عمران: ١٤٩.
(٢) آل عمران: ١١٨.

أمرهم موجوداً فيمَن نهى الله عن اتِّخاذهم "بِطَانة".

ولكن لا يتحقق ذلك إلا بمخالفة النهي من جانب المؤمنين.

عندئذ يقع ما حذَّر الله منه، من الفساد والمشقة، إذا اتَّخَذَ المؤمنون بطانةً من دونهم.

وجدير بالمؤمنين - وقد بَيَّنَ الله لهم صفات أعدائهم، وما تحمله نفوسُهم من البغضاء والحقد - أن يكونوا على حَذَر، وأن يُدركوا أن هؤلاء ليسوا أهلاً لأن يُتَّخَذوا بطانةً، إلا إذا كان المؤمنون قد رَضُوا لأنفسهم الخَبَالَ والفسادَ والعَنَت، ورَضُوا - كذلك - بالهَوان والذُّل، وأن يكونوا أسرى ما يُبَيِّته الأعداءُ من كيد.

عن عياض الأشعري « أنَّ أبا موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْه وَفِدَ إلى عمرَ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْه ومعه كاتبٌ نصرانيٌّ، فأعجبَ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْه ما رأى من حفظه، فقال: قُل لكاتبك يقرأُ لنا كتاباً. قال: إنه نصراني، لا يدخل المسجدَ. فانتهره عمرُ، وَهَمَّ به، وقال: « لا تُدنهم وقد أقصاهم الله، ولا تُكرمهم وقد أهانهم الله، ولا تُأَمِّنهم وقد خوَّنهم الله » (١)

وعن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: « لا تستعملوا أهلَ الكتاب؛ فإنهم يستحلُّون الرِّشَا، واستعينوا على أموركم وعلى رعيتكم بالذين

(١) السنن الكبرى للبيهقي: ١٠/١٢٧.

يخشونَ الله تعالى »

وقيل لعمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْه: « إنَّ هَاهُنا غلاماً من أهل الحيرة، لم يُر - قط - أحفظَ منه، ولا أكتبَ منه. فإنْ رأيتَ أن تتخذه كاتباً بين يديك » فقال عمر: « قد اتخذت إذن بطانةً من دون المؤمنين » (١)

وقد روى البخاريُّ عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَة، إلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَان: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوف وَتَحُضُّهُ عَلَيْه، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْه. فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى » (٢)

فالبطانةُ من غير المؤمنين قد نَهى الله عنها.

فإذا لم يتجنب المؤمنون ما نَهى الله عنه، وقعت النتائجُ التي أخبر الله عنها، وكانت عقاباً للمخالفة، مخالفة النهي والتحذير من العواقب.

وتلك هي النتائج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٥/٢٥٩، رقم ٢٥٨٧٢.

(٢) البخاري: كتاب الأحكام، باب بطانة الإمام وأهل مشورته، رقم ٦٦٥٩.

هَـٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١)

فحين سَلِمَت النفسُ من المعصية، وبَعُدَت عن مخالفة أمر الله في اتِّخاذ البطانة من دون المؤمنين، واعتصمت بالتقوى والصبر، كانت النتيجةُ ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

ولكن، متى يَنْفُذُ الكيد ؟

عندما تبتعد النفوسُ عن حِماهَا، من طاعة الله ورسوله، وتُخالف أمر الله، وتتَّخذ بطانةً من دون المؤمنين. فعواملُ الإفساد من خارج النفوس لا تضرُّ المؤمنين شيئاً، إلاَّ إذا تغيَّرت نفوسُهم، ولم يعتصموا بكتاب ربِّهم، ولم يتمسَّكوا بسُنَّة نبيِّهم ﷺ.

---

(١) آل عمران: ١١٨-١٢٠.

ولستُ بهذا أُقلل من خطورة الكيد، ومزاولته بأساليب شتى بين المسلمين. **ولكني أقول:** إن الكيدَ لا يَضُرُّ إلاَّ إذا كان في نفوس المسلمين استعدادٌ لتقبُّله. وهذا ما بيَّنته السُّنةُ الصحيحة، مع ما سمعتم من كلام الله ﷻ.

فقد جاء في صحيح مسلم، عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: « إِنَّ اللَّهَ زَوَى (١) لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ (٢)، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ (٣)، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ (٤)، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا،

---

(١) زُوِي: أي جُمِعَ.

(٢) قَالَ الْعُلَمَاء: الْمُرَاد بِالْكَنْزَيْنِ الذَّهَب وَالْفِضَّة، وَالْمُرَاد كَنْزَيْ كِسْرَى وَقَيْصَر مَلِكَيْ الْعِرَاق وَالشَّام

(٣) أَيْ لا أُهْلِكهُمْ بِقَحْطٍ يَعُمّهُمْ، بَلْ إِنْ وَقَعَ قَحْط فَيَكُون فِي نَاحِيَة يَسِيرَة بِالنِّسْبَةِ إِلَى بَاقِي بِلَاد الإِسْلَام

(٤) بَيْضَتهمْ: أَيْ جَمَاعَتهمْ وَأَصْلهمْ، وَالْبَيْضَة - أَيْضًا - الْعِزّ وَالْمُلْك.

وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا » (١)

وقد أدرك الصحابةُ الكرام هذا المعنى وحَفِظوه، وحذَّروا أنفسَهم من الذنوب والمعاصي، وكانوا يتخوَّفون منها، ويَرَون نَصْرَهم في انتصارِ فضائلهم، ومعصية عدوِّهم، لا في قوَّةِ سلاحهم، ولا في كثرة عَدَدِهم.

فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول في كتابه لسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقد أرسله لفتح فارس:

« أما بعد، فإني أُوصيك - ومَن معك من الأجناد - بتقوى الله على كُلِّ حالٍ؛ فإن تقوى الله أفضل العُدَّة على العدو. وأقوى المكيدة على الحرب. وآمرك - ومَن معك من الأجناد - أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوِّكم؛ فإن ذنوبَ الجُند أخوفُ عليهم من عدوِّهم، وإنما ينتصر المسلمون بمعصيةِ عدوِّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوَّة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتُنا كعُدتهم. فإن استوينا في المعصيةِ، كان لهم الفضل علينا في القوة،

---

(١) مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم ٥١٤٤.

وإلاَّ ننتصر عليهم بفضلنا، لم نغلبهم بقوَّتنا. فأعلموا أن عليكم في سَيركم حفظةٌ من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إنَّ عدوَّنا شَرٌّ منَّا، فلن يُسلَّطَ علينا، فَرُبَّ قومٍ سُلِّطَ عليهم شَرٌّ منهم، كما سُلِّطَ على بني إسرائيل لما عملوا بمعاصي الله كفارُ المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً. واسألوا اللهَ العونَ على أنفسكم، كما تسألونه النصرَ على عدوِّكم. أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم».

من هذا نُدرك أن أسبابَ الفساد كُلَّها تعود إلى نفوسِ الناس وأعمالِهم، لا إلى خطر الأعداء وقوَّتهم.

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

وقد رأينا - في التجارب العملية من تاريخنا - أن أشدَّ الأخطار قد أحاطت بالمسلمين ولم تستطع أن تنال من وَحْدتهم وثباتهم وإيمانهم ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا

(١) الشورى: ٣٠.

وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ (١)

مع الخطر الخارجي - والنفوسُ صامدةٌ صادقةٌ صابرةٌ، آخذةٌ بما استطاعت من الأسباب التي أمر الله بها - تَبرُّ النتائجُ، وينتصرُ المؤمنون مع قِلَّة عددهم، وخَطَرِ أعدائهم.

ومع الفُرقة الداخلية في صفوف المسلمين، وظهور المعصية فيهم، تتكالَبُ عليهم الأُمَمُ، ولا يُغني عنهم كَثْرَةُ عَدَدٍ، ولا وَفْرَةُ عُدَدٍ.

ولا سبيلَ لنُصرتهم إلاَّ بعودتهم إلى صِدْقِ الاستجابة لله وللرسول.

عندئذ تعودُ الحياة، وتعزُّ النفوسُ، وترتفع الرءوس، ويفرحُ المؤمنون بما يُحبُّون من نَصْرٍ وفتحٍ ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢)

عندما نَقضت "قُرَيْظَةُ" عهدَها مع رسول الله ﷺ، والمدينةُ مُحاصَرة من المشركين الذين ساقَهم اليهودُ لحرب المسلمين في غزوة

(١) الأحزاب: ٢٢.
(٢) يوسف: من الآية ٢١.

"الخندق"، وبلغ الأمرُ مبلغاً خطيراً.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ ﴾ (١)

فلمَّا انتهى خَبَرُ الغدرِ من قريظةَ إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين، بَعَثَ رسولُ الله ﷺ سَعْدَ بنَ مُعاذٍ، وسَعْدَ بنَ عُبادَةَ، وعبدَ الله بنَ رَوَاحَةَ، وخوَّاتَ بنَ جُبير، وقال: « انطلقوا حتى تنظروا، أحَقٌّ ما بَلَغَنَا عن هؤلاء القوم ؟ أم لا ؟ فإذا كان حَقًّا، فألْحِنُوا لي لَحْنًا أعرفه، ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس »

فخرجوا حتى أتَوْهُم، فوجدوهم على أخبثِ ما بلغهم عنهم.

نَالُوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: لا عَهْدَ بيننا وبين محمد ولا عَقْد، فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَشَاتَمُوهُ - وَكَانَ رَجُلاً فيه حِدَّةٌ - فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: دَعْ عَنْكَ مُشَاتَمَتَهُمْ، فَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَى

(١) الأحزاب: ١٠، ١١.

مِنْ الْمُشَاتَمَة. ثُمّ أَقْبَلَ سَعْدٌ وَسَعْدٌ وَمَنْ مَعَهُمَا إلَى رَسُولِ اللّه ﷺ فَسَلّمُوا عَلَيْه، ثُمّ قَالُوا: عَضَلٌ وَالْقَارَةُ - أَيْ كَغَدْرِ عَضَلٍ وَالْقَارَةِ بِأَصْحَابِ الرّجِيعِ، خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِه. فَقَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: « **اللّهُ أَكْبَرُ، أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ** » (١)

« أَبْشِرُوا » في الوقت الذي بلغ الخَطَرُ فيه مبلغاً زُلزِلَت فيه النفوسُ، وظهر أهلُ الصدق بصدقهم، وأهلُ النفاق بنفاقهم. وتميَّزت الصفوف.

ولم يزدد المؤمنون إلاّ إيماناً وتسليماً، فَصَفُّهم مُوحَّدٌ، لا سبيلَ للنَّيْلِ منه، ولا مجالَ لإضعافه، أو النفاد بين صفوفه.

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢)

ماذا فعل الخَطَرُ الخارجي ونفوسُ المؤمنين على هذا الحال الذي سَمعتم من كلام الله ﷻ ؟

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١٧٨/٤.
(٢) الأحزاب: ٢٣.

لم يَنَل منهم عدوُّهم، و لم يُحقّق غَرَضاً، وبَاءَ بالفشل والخسران.

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

ذلك هو الخطر الخارجي في أشدِّ صُوَرِه، وتلك آثارُه ونتائجُه.

والمؤمنون على ثباتٍ وصِدْقٍ، وإيمانٍ وتسليم.

الرسول ﷺ يقولُ: « اللهُ أكبرُ، أبشروا يا معشر المسلمين »

وقد وقع ما بَشَّرَ به، وجاءت نعمةُ الله تُرَى، وتُتْلَى، وتُذكر.

يذكرها المؤمنون، وينساها الغافلون ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا

(١) الأحزاب: ٢٥-٢٧.

لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ (١)

ولكن عندما يكون الخطرُ من داخل النفوسِ - بتغيُّرها أو بفُرقتها وتنازعها - لا يقول الرسول ﷺ « أَبْشِروا »، بل يردُّ النفوسَ إلى صَوابِها، ويُذكّرها بنعمة ربِّها، ويُعيدها إلى أخوَّتها ووَحْدَتها.

فعندما عَلِمَ الرسول ﷺ بما فعله اليهوديُّ الخبيثُ "شاسُ بنُ قيس" من تجديدِ الفتنة بين "الأوس والخزرج" بعد انقطاعها بالنبي ﷺ، خرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه، حتى جاءهم - وقد اصطفُّوا للقتال - فقال لهم:

« يا معشر المسلمين، اللهَ اللهَ. أبدَعْوَى الجاهلية وأنا بين أظهُركم ؟! أبَعْدَ أن هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقَطَعَ به عنكم أمرَ الجاهلية، واستنقذكم به من الكُفر، وأَلَّف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كُفاراً ؟! »

فعرف القومُ أنها نَزْغَةٌ من الشيطان، وكيدٌ من عدوِّهم لهم.

فألقوا السلاح من أيديهم، وبَكوا، وعانَقَ الرجالُ بعضُهم بعضاً.

---

(١) الأحزاب: ٩.

ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله الكيدَ عنهم، كيدَ عدوِّهم؛ باستجابتهم لرسول الله ﷺ وسَماعِهم لأمره.

ولو قاتل بعضُهم بعضاً، لَنَفَذَ كيدُ العدوِّ فيهم، ووقعوا فيما نَصَبَهُ لهم، وأرادهم به من فُرقةٍ بعد وَحْدَةٍ، وكُفْرٍ بعد إيمان.

نعم أُطْفِئَ الكيدُ باستجابة النفوس وطاعتها لله ولرسوله، وطَرْحِها الهوى المُغْرِق، والمعصية الحالقة، وعودتها إلى أُخوَّةِ الإيمان.

ولم يكن ما نزل من القرآن تذكيراً لـ "الأوس والخزرج" في هذا الموقف فحسب، وإنما هو بيانٌ وتذكيرٌ للمؤمنين في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهُدَىً وموعظةٌ للمتقين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا

وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [1] وكلمة ﴿ جَمِيعًا ﴾ في هذا المقام لها دَلالتُها؛ فقد أوجب الله علينا التمسك بكتابه وسُنَّةِ نبيِّه، والرجوع إلى الكتاب والسُّنة عند الاختلاف.

﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [2]

أُمِرْنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسُّنة، اعتقاداً وعملاً.

وذلك سببُ اتِّفاق الكلمة، وانتظام الشَّتات الذي تتمُّ به مصالح الدين والدنيا، والسلامة من الاختلاف.

أُمِرْ بالاجتماع، ونُهيَ عن الافتراق الذي حَصَلَ لأهل الكتاب.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [3]

---

(١) آل عمران: ١٠٠- ١٠٣.
(٢) النساء: من الآية ٥٩.
(٣) آل عمران: ١٠٥.

في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثًا. فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ » (١)

إن عامل الفُرقة من داخل النفس قد يبدأُ – حين يبدأ – بميلٍ أو انحرافٍ يسيرٍ، ثم لا يلبثُ أن يتَّسعَ، ويمتدَّ خطرُه، ويعظُم أثرُه؛ فإن النفوس لا تفقد أُلفَتَها إلاَّ بمعصيةٍ أو إثمٍ.

والمعادلة قائمةٌ في سُنَّةٍ لا تتخلَّف. تعظُم الروابطُ وتقوى بقوَّة الإيمان، وصدقِ اليقين. وتضعُف وتَفتُر، بضعفه وفُتوره.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (٢)

---

(١) مسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، رقم ٣٢٣٦.

(٢) الأنفال: ٦٢، ٦٣.

فأُلفَةُ القلوب من عند الله، وما عند الله لا يُطْلَبُ إلاَّ بطاعته.

وهي لا تُشتَرَى بمالٍ أو متاعٍ، مهما كَثُرَ أو عَظُمَ. وإنما تُطلَبُ من الله بصدق الإيمان، وحُسْنِ التوكل عليه.

إن التنافُسَ على مرضات الله لا يدعُ مجالاً للفُرقة أو التنازع، وإنما يقع التنازع، وتستعِرُ نارُ الفُرقة مع الإصرارِ على الذنب، والإقامة على الإثم، والمجاهرة بالمعصية. عندئذ يوشك الشيطانُ أن يستحوذَ على الإنسان، فيُنسيه ذِكْرَ ربِّه.

ولا بُدَّ - والحالةُ هذه - من وقوعِ الوبالِ والخسران.

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (١)

والله - جَلَّ وَعَلا - يُنبِّهنا على ذلك، ويُبيِّنُ لنا أنَّ نسيانَ الله في أعمالنا يؤدِّي - لا محالةَ - إلى نسيانِ النفس؛ عقاباً وجزاءً.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

(١) المجادلة: ١٩.

هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[1]

وإذا وقع الانحرافُ في الطاعة والعبادة، ومَالَ الناسُ عن الصراط المستقيم، تعدَّدت السُّبُل، ووقعت الفُرقة، وكان ذلك إيذاناً بالفَشَلِ وذَهَابِ الرِّيح. ولذا جاءت الآية الكريمة جامعةً بين الأمر بالطاعة "طاعة الرسول" وبين النهي عن التنازع؛ فإن التنازع وليدُ المعصيةِ، والوَحْدَةَ وليدُ الطاعة ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[2]

ففي صِدْقِ الاتباع تَكْمُنُ الوَحْدَةُ، وفي المخالفة يقعُ التنازع، وتأتي الفُرقة. لأنَّ المخالفةَ جُنوحٌ إلى الهوى، والهوى مُفَرِّقٌ؛ لأنَّ لكُلٍّ هـــواه ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾[3]

سبيلُ الوَحْدَةِ أن يقومَ كُلُّ شيءٍ في حياتِنا على نورٍ من دِيننا.

---

(١) الحشر: ١٩.

(٢) الأنفال: ٤٦.

(٣) ص: من الآية ٢٦.

وأن تقومَ الروابط على أساسٍ منه.

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (١)

أمر الله ﷻ أن نجتمعَ على التمسك بالإسلام أو القرآن، ونهى عن التفرُّق الناشئ عن الاختلاف في الدِّين.

ذاك هو سبيلُ وحدتنا، ولن تقوم وَحْدَةٌ بين المسلمين بغيره.

وأيُّ محاولةٍ لجَمْعِ كلمة المسلمين على غير هذا الصراط المستقيم، ستنتهي - حَتْماً - إلى فُرْقةٍ، وفَشَلٍ، وضياع.

وما من شيءٍ أَمَرَ الله به، ودعا الرسول ﷺ إليه، إلا وله أثرُه ونتائجُه في وَحْدَةِ المسلمين وتماسكهم.

وما من شيءٍ جاء النهيُ عنه، إلا وكان له خطرُه في إضعاف شأن المسلمين، وذهاب ريحهم. فإذا فعلنا المنهي عنه كان معناه أننا فعلنا ما يُؤدِّي إلى إضعافِ شأنِنا، وذَهَابِ ريحِنا.

وإذا تركنا المأمور به وخالفناه، كان معناه أننا تركنا ما يُقَوِّي

(١) آل عمران: من الآية ١٠٣.

أمرَنا، ويرفع شأننا.

وتأمَّل فيما أوجبَ الله من فرائضَ، تَرَاهَا كُلَّها ذات تأثيرٍ بالغٍ في وَحْدَتِنا، وجَمْعِ كلمتنا.

من صلاةٍ تُسَوَّى فيها الصفوفُ، وتقف متساندةً كالبُنيان المرصوص.

وزكاةٍ بارَّةٍ، تُوصَلُ بها بين الأرحام.

وصَوْمٍ تنصهِرُ فيه الأُمَّةُ الإسلامية في بوتَقَةِ الوَحْدة من كُلِّ وَجْهٍ.

وحَجٍّ يُعبِّرُ عن وَحْدَةِ هذه الأُمَّةِ، كما تُعبِّرُ الشمسُ بظُهورِها عن تَجَلِّي النهار.

فإبطالُ هذه الفرائض، أو التهاونُ فيها، إبطالٌ وتدميرٌ لوَحْدَةِ هذه الأُمَّةِ.

ومنها فريضةٌ تتكرَّرُ في اليوم خَمْسِ مَرَّاتٍ..

وفريضةٌ تأخُذُ من الزَّمَنِ شهراً يتميَّزُ بمذاكرةِ القرآن..

وفريضةٌ تُخضعُ المالَ لأمر الله، فتُنمِّيه وتُزكِّيه حين يُؤدَّى حَقُّ الله فيه، وحَقُّ الله منسوبٌ إليه، ومُعْطَى لخَلقه؛ ليكونَ بارَّاً، لا يحملُ مَنَّاً ولا أذَى.

وفريضةٌ جامعةٌ مُجَمِّعَةٌ، عند الحَرَم الآمن، والبيت العتيق، يأتي الناسُ إليها - في ساحة المناسك - أخوةً مُتحابين، في وَحْدَةٍ مُعبِّرةٍ عن الأُمَّة الواحدة.

وقبل هذا وبعدَه شهادةُ التوحيد "أشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ الله، وأشهدُ أنَّ محمداً رسولُ الله" عنوانُ وَحْدَةٍ كاملة، تتلاشى معها حدودُ الزمان والمكان، وتذوبُ فوارقُ الجنسِ واللون، ويُرَى في ساحتها بلالُ الحبشي، وسلمانُ الفارسي، وصهيبُ الرومي.

عقيدةٌ جمعت بينهم، وقرَّبتهم من رسول الله ﷺ، وباعَدَت بينه وبين عمِّه أبي لَهَب العربي القرشي.

ومع الفرائض التي بُني الإسلام عليها، نستمعُ إلى التوجيهات الإسلامية من القرآن والسُّنة، فَنَراها مُوحَّدةً مُجَمِّعَةً، داعيةً إلى التعاون على البرِّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

إذا فُرِضَ الجهادُ على المسلمين بَطلُ كُلُّ سببٍ من الأسباب المُفرِّقة، وبقي السببُ المُجَمِّع، الذي يُقاتِلُ من أجْله المسلمُ، فيُقْتَلُ أو يَغْلب.

في الحديث المتفق عليه عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْه قَالَ: « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ

لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ »

وفي روايةٍ: « يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً » (١)

وفي روايةٍ: « يُقَاتِلُ غَضَبًا » (٢)

فقال رسول الله ﷺ: « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (٣)

ألاَ تَرَى أنَّ السَّبب الذي يُقاتِلُ من أجله المسلمُ سَبَبٌ مُجَمِّعٌ لصفوف المجاهدين، مُوحِّدٌ لغايتهم، وأنَّ مَا عَدَاهُ مُغْرِقٌ ومُدمِّرٌ.

فالرجلُ يُقاتِلُ للمَغْنَمِ، والرجلُ يقاتِلُ لِيُذْكَر، ولِيُرَى مكانُه، أو يُقاتِلُ شجاعةً وحَمِيَّةً.

أسبابٌ تنطلقُ معها حظوظُ النفس والهَوى، فلا تدَعُ مجالاً لتوحيدِ الصَّفِّ، وَجَمْعِ الكلمة.

فإذا تأمَّلتَ ما يُؤمَرُ به المؤمنُ، أو يُنْهَى عنه، رأيتَ التوحيدَ،

---

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم ٣٥٢٥.
(٢) البخاري: كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً، رقم ١٢٠.
(٣) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم ٢٥٩٩.

توحيدَ الكلمة، وتوحيدَ الصَّفِّ، وتوحيدَ الغاية.

تُزَالُ من طريقه العوائقُ، وتُنصب المعالم والمنائر، ويمهد بجميع الوسائل؛ لكي يسلكه الناسُ جميعاً بلا عُسْرٍ ولا حَرَجٍ.

في الحديث المتفق عليه، عن عَبْد اللَّه بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ. لا يَظْلِمُهُ، وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيه، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِه، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١)

وفي صحيح مسلمٍ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ « لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا (٢)، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّه إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ - بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ،

---

(١) البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه، رقم ٢٢٦٢.

(٢) مِنَ النَّجْش وهُو: أَنْ يزيد في السِّلْعة وهُوَ لا يُرِيد شِراءَهَا؛ ليقع غيْره فيهَا.

كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ » (١)

تأمَّل معي، ألا ترى أنَّ كُلَّ مَا مِن شأنه أن يُوغِرَ الصدورَ، أو يُوقِعَ البغضاءَ، أو يدعو إلى التنافر والتناكُر، قد نُهيَ عنه، وحُذِّر منه.

وكُلَّ ما من شأنه أن يُؤلِّفَ القلوبَ، ويجمع الصفوفَ، ويوحِّد الكلمةَ، قد أُمِرَ به، ودُعِيَ إليه.

وإن الإنسانَ ليقفُ – طويلاً – أمامَ حديثِ رسول الله ﷺ القائل: « مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا (٢) عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا » (٣)

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه، رقم ٤٦٥٠.

(٢) أيْ اقْتَرعُوها . فأَخَذَ كُلّ واحدٍ مِنْهُمْ سَهْمًا أيْ نَصِيبًا مِنْ السَّفِينَة بِالْقُرْعَة.

(٣) البخاري: كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيها، رقم ٢٣١٣.

الإنسانُ يقفُ طويلاً أمام هذا التشبيه الذي يوضِّحُ خطورةَ الأمر، إذا انفردَ ناسٌ بالتصرف السيئ، وهم يدَّعونَ أنهم أحرارٌ يفعلون في مكانهم ما يشاءون، ولا يجدون من يردعهم، أو يأخذ على يدِهم!

الخطورةُ - هنا - تكاد تشاهدها بعينك في حركة السفينة وهي تُكابِدُ الغَرَقَ، وتهوي بِمَن فيها إلى القاعِ.

سَفِينَةٌ واحدةٌ !! ألا يستلزمُ الأمرُ - والحالة هذه - أن يحافظ الجميعُ عليها، وأن لا يساء من قِبَلِ أحدٍ منهم؛ حتى تصل بهم إلى شاطئ النجاة.

أليسَ من مصلحتنا - جميعاً - أن نُحافظَ على إسلامنا، وألاَّ نُحدِثَ فيه ما يضُرُّ بنا جميعاً.

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنه أَنَّهُ قَالَ: « أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ

(١) الأنفال: ٢٥.

تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَـةَ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴾ (١) وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ » (٢)

سبيلُ الوَحْدة دينٌ واحدٌ. له فرائضُه التي يجب أن تُقامَ، ومعالمهُ التي يجب أن يُنْتَهى إليها.

على أساسه تكون الصلاتُ، وبه تكونُ المودَّةُ.

فإنَّ أُلْفَةَ القلوبِ بيد الله، وما عند الله لا يُطْلَبُ إلاَّ بطاعته.

ولا أُلْفَةَ إذا ضُيِّعَت الفرائضُ، وانتُهِكَت المحارمُ، واستُبِيحَت الحُرُمَاتُ، وغدا المعروفُ منكراً، والمنكر معروفاً.

سبيلُ الوَحْدةِ صِرَاطٌ مستقيمٌ. فيه تخلص النفوسُ لربِّها، وتحبُّ الحقَّ الذي جاء من عند الله، وتُؤثره على هَوَى النفس.

---

(١) المائدة: ١٠٥.

(٢) الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، رقم ٢٠٩٤، وقال: هذا حديثٌ صَحِيحٌ

فهل حَفِظَت أُمَّتُنا الإسلامية - في كثيرٍ من ديارها - سُبُلَ الوحدة ؟

أم اتبعت السُّبُلَ، واعتنقت الشعاراتِ المُنافية لدين الله، وفرَّطَت في جَنبِ الله، وتنكَّرَت للأخوة، وفوَّتت أسبابَ التعاون في شتَّى المجالات، وقتلت نفسَها بالظَّمَأ والماءُ محمولٌ على ظَهْرِها مارٌّ ببَابِها ؟!

وإذا كان سبيلُ الوَحْدة واحداً، وطريقُها صراطاً مستقيماً لا يتعدَّد, فإن أسبابَ التفرُّق متعددة ومتنوعة.

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (١)

والخيارُ بين أَمْرَيْنِ، لا ثالثَ لهما:

إمَّا أن يتَّبِعَ المسلمون دينَهم، ويُخضعوا هواهم له، فتكون الوَحْدة، وتكون المَنَعَةُ.

وإمَّا أن يتبعوا السُّبُلَ، فتكون الفُرْقةُ والذِّلةُ والهَوَان.

والمسلمون - على علاَّتهم - هم موئلُ الإنسانية، وأملُ المستقبل.

---

(١) آل عمران: من الآية ١٥٣.

هم الأُمّة الوحيدة على وجه الأرض المَنُوطُ بها قيادة الإنسانية، والتي يَفْرِضُ عليها دينُها أن تراقب سَيْر العالم، وتُحاسب الأمم على أخلاقها وأعمالها ونزعاتها، وأن تقودها إلى الفضيلة والتقوى، وتُحول بينها وبين جهنم بما استطاعت من قوّةٍ.

وإذا ضَعُفَ المسلمون، وتفرَّقت كلمتُهم، فأيُّ قوّةٍ في الأرض يُرْجَى منها أن تقومَ بهذا الدور ؟

وهو لن يكونَ إلاَّ بإعلاء كلمة الله في الأرض.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

إنَّ تفرّقَ الأُمّة الإسلامية وضَعفَها يجعلها نَهْباً لكُلِّ طامعٍ، ويُحوِّلها من متبوعٍ إلى تابعٍ، ومن أُمّةٍ صاحبةِ رسالةٍ، إلى كَمٍّ مُهْمَلٍ لا يُؤدِّي رسالةً.

وَبَعْدُ، مَرَّةً أُخْرَى..

---

(١) الحديد: ٢٥.

فإنَّ أسبابَ الفُرقة تتعدَّدُ بتعدُّدِ الأهواء.

ولكُلِّ هَوى شيطانُه، ولكُلِّ شيطانٍ شعارُه.

ومرجعها - جميعاً - إلى فسادٍ في العقيدة، أو إعراضٍ عمَّا تُوجبه وتفرضه، من ذِكْرٍ وشُكرٍ.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١)

وهذا هو الطريق: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ ﴾.

---

(١) الزخرف: ٣٦ - ٤٤.

فإنَّ فيه رِضَىً الله، وفيه أُلْفَةُ الناس ومودَّتُهم.

إن أُلْفَةَ الناسِ تُطْلَبُ من الله بطاعته، كما تكون الشحناء والبغضاء بمعصيته.

وهذا ما جاءت به السُّنةُ الصحيحة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا، فَأَحْبِبْهُ. فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا، فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ » (١)

وفي رواية مسلم: قال رسول ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلانًا، فَأَحِبَّهُ. قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا، فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ. قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ.. » (٢)

* * *

(١) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٢٩٧٠.

(٢) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده، رقم ٤٧٧٢.

فاللهمَّ ألِّفْ بين قلوبنا، وأصْلِحْ ذاتَ بيننا، واهْدِنا سُبُلَ الرشادِ؛ فإنَّكَ على ما تشاءُ قدير. أنتَ مولانَا، نِعْمَ المولَى، ونِعْمَ النَّصِير.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

وصلى الله وسلَّمَ وباركَ على سيدنا ومولانا محمدٍ، وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين.

* * *